الهاربون من الحياة

«لـن يسـتطيع أحـد هزيمتـك إلا إذا هزمـت نفسـك».. عبـارة تـرددت في عقـل ذلـك الـذي وقـف في غرفتـه ينظـر إلـي بضـع صـور زينـت أحـد جدرانهـا، لا يعلـم لمـاذا ينتابـه ذلـك الشـعور الجـارف بالرحيـل عـن كل شـيء، غيـر أن نظـرة إلـي تلـك الصـور تجعلـك تـدرك أن مسًـا أصـاب ذلـك الرجـل هـذا اليـوم، فتلـك صـورة لـه يحمـل أثقـالاً بيديـن عاريتـين، وأخـري يلتحـف بعلـم بـلاده ظافـرًا بفـوز عظيـم، يمسـك بإحـدى يديـه ميداليـة أولمبيـة، في حـين أشـار بالأخـرى علامـة نصـره المبـين.

علي طرف شفتيه حمل ثغره تلك الابتسامة، والتي جمعت ما بـين نشـوه زمـن لـم يعـد زمنـه، وسـخرية إنسـان يتألـم أثـر الخذلان، فمـا فائـدة أن يفخـر بمجـد لـم يشـعر بـه غيـره، مـا فائـدة أن يبـذل عـرقٌ لمـن لا يسـتحق جهـده، كانـت مجـرد لحظـة انتابتهـم فيهـا نشـوه انتصـار نسـبوه لأنفسـهم كذبًـا، ثـم كان يـومٌ احتشـدوا لتكريـم سـرقوا أضوائـه، فاعتلـي هـذا منصـةً متحدثًـا عـن دعمـه، وتبـارى أخـر في إظهـار تلـك الخدمـات التـي قدمهـا لبطـل قومـي، ثـم التقطـوا تلـك الصـورة التـي تزيـن منزلـه، قبـل أن يختتمـوا يومهـم بـوداع ونصيحـة آلا يعـود إلـي ذلـك أبـدًا.

تنهيدةٌ حارةٌ أطلقها الرجل بصوت هادر، كادت من قوتها أن تشعل حجرته الصغيرة، حتي أنه شعر بدفء شمس ساطعة في نهار شتاء بارد، فتصبب عرقًا غزيرًا أو هكذا توهم، فراح يمسح جبينه الجاف من عرق لم يسيل، قبل أن يتمتم قائلاً، لا تبتئس هكذا يا رجل فتلك أيام ليتها لا تعود، وهذه المدينة لا تجيد صناعة شيء عظيم، ظننت يومًا أنك وصلت إلي هدفًا حلمت به، ولكنك كما تعودت ظن من النوع الأثيم، ثم اعتدل نافضًا رأسه مما علق من غبار ذكريات أليمة، قبل أن يتجه إلي مكتبه الصغير، وصديقة الوحيد.

«ألف شركة وألف رجل أعمال، مفيش حد فيهم يقدر يرعاني لحد أولمبياد ٢٠٢٠ لتحقيق حلمي الكبير، فوضت أمري ليك يا رب».. عبارات قليلة راح يكتبها الرجل علي حسابه الشخصي علي موقع التواصل الاجتماعي، لم يكن لديه من يبوح إليه بوجيعته، يدرك أن أحدًا لن ينصت إلية، لذلك فضل الحديث مع نفسه، أو كتابه ما يشعر به، عله يجد فرصة تعيد له حلمه من جديد، فرصة يحقق من خلالها انتصارٍ، يعلم جيدًا أن نشوتها ستطول الجميع، من ساندوه ومن أهملوه، فرصة تجعله لا يهرب من الحياة.

ذات صباح منذ عشرين سنة مضت، حينما كان هذا الرجل في العاشرة من عمره، لبي نداء صاحبه في الفصل للذهاب إلي الساحة الشعبية المجاورة لقريته، فهذا اليوم تُلعب بطولة الجمهورية في رفع الأثقال، وقف الطفل وسط حشد كبير يراقب بعين الإعجاب رجال اصطفوا تمهيدًا لبدء بطولة تحدي الأقوياء، ممشوقي القوام يتمتعون بعضلات بارزة، اكتسبت أجسادهم صلابة الفراعين الأولين، رأي فيهم حُلم راوده يوم ما، أن يقف هكذا علي منصة الفائزين حاملاً لقب الأقوى، ليس في قريته أو حتي في بلده، بل في العالم اجمع.

لم يُخيب الظن هذا الفتي، فقد أضحي يومًا ما أراد، حقًا عاني الكثير من أجل تحقيقه، حقًا واجه العراقيل بصدر حاول أن يُظهر أنه رحب، ولكنه في النهاية حقق ما حلم به، أضحي رجلاً قويًا يعتلي منصة تلو الأخرى فائزًا، جاب الكرة الأرضية شرقًا وغربًا رافعًا راية بلده، مرت عشرون عامًا ولم يتغير شيء، نفس الحفل الذي ينتشي به الآخرون، ونفس الصورة التي اعتاد أن يزين بها جدار غرفته، واليوم وقد أضحي رجل قارب الثلاثون من عمره، أدرك أنه لن يكون قادرًا علي مواصلة تحقيق حلمه، وأنه آن الأوان للفرار من تلك الحياة.

●●●

لـم يكـن شـروق شـمس هـذا اليـوم كأي شـروق، ليـس لأنـه يـوم مـن أيـام الربيـع الجميلـة، تنـاغمـت فيـه كل خلائـق الطبيعـة لرسـم تلـك اللوحـة السـاحرة، علـي كورنيـش نيـل القاهـرة، وقفـت تلـك الأشـجار الزاهـرة، تتراقـص علـي أنغـام ريـح رطبـة مغمسـة بالنـدي، فتهللـت علـي أفرعهـا الطيـور الجواثـم، تحـوم فيمـا بينهـا فراشـات بحـث عـن الرحيـق، وتسـلقت الطيـور ثاقبـات الخشـب الكسـتناء، ناقـرة بمناقيرهـا ثقـوب اللحـاء، وحلقـت العصافيـر وطيـور السـنونو تزيـن تلـك السـماء، لقـد استنشـق مـن كان هنـا ريـح السـعادة.

أعلـي أحـد الكبـاري النيلـة العريقـة، تلـك التـي تزينهـا الأسـود الحديديـة، تجمـع حشـد مـن النـاس، رجـال ونسـاء، أطفـال وشـيوخ، يتزاحمـون لإلقـاء نظـرة علـي حافـة الجسـر، رافعـين أيديهـم بهواتفهـم المحمولـة لالتقـاط صـورة تذكاريـة مـع هـذا الذي يتدلى، شـاب صغيـر، لـم يتخـط الرابعـة والعشـرين، قـرر الرحيـل، وبكامـل حلتـه الرسـمية.

«مسـقط رأسـي مـن تلـك التظاهـرة، خبِّـئْ مشـاعركَ القديمـةَ كلهـا، واكتـبْ لمصـرَ اليـوم كلمـات تليـق بشـعبها، لا صمـتَ بعـد اليـومِ يفـرِضُ خزيـهُ، فاكتـب نقـداً لنيـل مصـر وأهلَهـا»..لا أعلـم لماذا جـاءت كلمـات شـاعرنا هشـام الجُـخ في مُخيلتـي وأنـا أري ذلـك المشـهد العبثـي، فخرجـت أبياتـه بتلـك الصـورة المُزريـة، لتعبـر بصـدق عـن ذاك المشـهد الأليـم.

قبـل قليـل، وداخـل احـدي مؤسسـات العـدل في بلادنـا، وقـف منصـور أمـام تلـك اللجنـة واثقًـا، كان قـد ودع والديـه صبـاح هـذا اليـوم ممنيًـا نفسـه بتحقيـق حلـم حياتـه، فتـي تخـرج مـن الحقـوق متفوقًـا، وآن لـه أن يخطـو خطـوة طالمـا سـعي إليهـا، رغـم شـكوك والـده الـذي يعمـل كناسًـا للمدينـة، دائمًـا مـا يذكـره، يـا بنـي لـن يوافقـوا بـك، لـن يرضـوا بقـاض يعمـل والـده عامـل نظافـة، لا يغرنـك تفوقـك وحصولـك علـي المراكـز الأولـي، فهـي لا تسـمن ولا تغنـي مـن جـوع، يـا بنـي مثلنـا لا مـكان لـه تحـت الشـمس، سـتعيش ابـن كنـاس المدينـة، وسـتموت ميتـة ابـن عمـال النظافـة.

لـم يلتفـت منصـور لحديـث أبيـه، كان يظـن أنـه يعيـش عصـرًا غيـر عصـره، وأن أبـن الريـس عبـد الواحـد جنايني الباشـا قـد أنهـي تلـك النظـرة الدونيـة لبسـطاء المصريـين، ولكنـه لـم يكـن يـدرك أنـه ظـن مـن النـوع الأثيـم، وأنـه مـا ثـورة قامـت في تلـك المدينـة الجائعـة، ارتـدي الفتـي أبهـي مـا لديـه، حلـة بسـيطة ولكنهـا كانـت أجمـل مـا يمتلـك، رابطـة عنـق اعتقـد أنهـا مناسـبة، حـذاء حـرص علـي تلميعـه بنفسـه، ذهـب إلـي المـرآة ينظـر إلـي هيئتـه، أغمـض عينيـه، ثـم راح يتخيـل نفسـه يقـف بهـا في قاعـة المحكمـة ينتصـر للحـق والعـدل.

«لا أعتقـد يـا بُنـي أنـك تسـتحق هـذا المنصـب».. كلمـات كالرصـاص انطلقـت داخـل قاعـة المحكمـة، كلمـات أيقظـت الفتـي منصـور مـن

أحلامـه، قالهـا والـده ولـم يصدقهـا، لمـاذا يرفضونـه، لقـد تفـوق في دراسته علي الجميع، لا ينقصه أي شـيء، مصـري مـن أبوين مصريـين، حصل علي المركز الأول علي جامعته، فمن يصلح غيره، لم يشعر أن مـا يفكـر بـه يخـرج مـن فمـه بصـوت مرتفـع، إلا أن ضحـكات سـاخرة متقطعـة مـن أعضـاء تلـك اللجنـة جعلتـه ينتبـه، لا تقلـق يـا بنـي، هنـاك الكثيـر يسـتحق، لكنهـم ليسـوا مثلـك، بـل أعلـي شـأنًا.

مـن يـري منصـور صبـاح هـذا اليـوم لا يمكـن أن يصـدق مـا آل إليه الآن، فشتان بين فتي خرج من منزله يحدوه أمل جعله مختالاً فرحًـا بنفسـه، وبـين فتـي قتلـوا حلمـه حتـي قبـل أن يولـد، دون أن ينطـق كلمـة التفـت تـاركًا تلـك اللجنـة الظالمـة، خـرج مـن الغرفـة منكـس الـرأس، يبـدو عليـه الحـزن والانكسـار الـذي أوصلـه حـد البكاء، حـزن أدركـه مـن ينتظـر دوره مـن البُسـطاء الحالمـين في هـذا البلـد التعيس، انكسـار جعـل البعض ينسـحب من تلك المنافسـة غيـر المتكافئـة، في حـين انتفخـت أوداج البعـض ممـن ظنـوا أنهـم أسـمي وأرقـي مـن علـي هـذه الأرض.

هـام منصـور علـي وجهـه في شـوارع المحروسـة، لا يـدري إلـي أيـن يتجـه، ولا إلـي أيـن تقـوده قدمـاه، فقـط لا يرغـب في العـودة إلـي المنـزل، العـودة إلـي ذلـك الوالـد الـذي رفضـوه لبسـاطة مهنتـه، يؤلمـه أن يشـعر ذلـك الأب أنـه سـبب هزيمتـه، رغـم تنبـؤه بمـا سـيحدث

هـذا اليـوم، راح الفتـي يلعـن سـنوات عمـره التـي قضاهـا دون فائـدة، راح يلعـن كل لحظـة حلـم فيهـا مـن أجـل هـذا الوطـن، كيـف يعيـش في وطـن رفـض الاعتـراف بإنسـانيته، بوطنيتـه، وطـن يتعامـل معـه كمواطـن مـن الدرجـة الثانيـة، وطـن صنـف أبنـاءه طبقًـا لدرجاتهـم الاجتماعيـة، طبقًـا لمهـن آبائهـم.

انطلـق صـوت المؤذن معلنًـا موعـد أذان الفجـر، في تلـك اللحظـة وصـل منصـور إلـي كورنيـش النيـل، وقـف يتلفـت يمينًـا ويسـارًا، هـل هـام علـي وجهـه طيلـة هـذا اليـوم، مـن أيـن جـاء، وكيـف سـار في شـوارع المحروسـة كل تلـك السـاعات دون أن يـدري، إنـه لا يذكـر أي شـيء منـذ أن تـرك تلـك اللجنـة المشـئومة، إنـه يخشـى العـودة إلـي المنـزل، يخشـى مواجهـة والديـه، يخشـى مواجهـة نفسـه، أي حيـاة يمكـن أن يعيشـها بعـد اليـوم وهـو يعيـش مواطنًـا مـن الدرجـة الثانيـة، أي انتمـاء يمكـن أن يقدمـه لوطـن يرفـض وجـوده، أو حتـي يفخـر بـه.

استـند منصـور علـي سـور كوبـري قصـر النيـل متأمـلاً مياهـه السـاكنة، راح يشـكو لـه ضعـف قوتـه، وقلـه حيلتـه، وهوانـه علـي النـاس، كان يشـعر باختنـاق، فقـد سـد امتـلاء قلبـه بالحـزن حلقـه، لـم يعـد قـادرًا علـي احتمـال رابطـة عنقـه، فأسـرع بفكهـا بأيـدي مرتعشـة، بكـي بحرقـة وهـو ينظـر إليهـا، ليسـت تلـك التـي رآهـا صبـاح هـذا اليـوم وأُعجـب بهـا، أمسـكها بكلتـا يديـه، رفعهـا أمـام وجهـه ليـري

ما جعله يندهش، لقد صنع دون أن يقصد من رابطة عنقه حبل مشنقه، كسجين حُكم عليه بالإعدام رآه يتدلى أمام عينيه، وما يدهشه أكثر أنه لم يجزع من هذا المشهد، ولكنه شعر بسعادة غامضة.

تلك هي النهاية إذا، نهاية إنسان أراد الحياة، ولكنهم أجبروه علي اختيار الموت، لم يفكر كثيرًا، كان يخشى التراجع أكثر من خشية الموت نفسه، دون تردد راح يربط طرف رابطة العنق علي سور الجسر، ثم صعد واضعًا الحلقة التي صنعها حول عنقه، نظر إلي السماء باكيًا، قبل أن يترك جسده يتهاوى أعلي نهر النيل، لتنتهي حياته كمواطن من الدرجة الثانية، وتبدأ حياته كإنسان فقد إنسانيته حينما كان حيًا.

●●●

هل سيسامحه اللّه علي تلك الكذبة البيضاء أم سيعاقبه عليها